الثورة التحريرية في القصيدة الشعبية الجزائرية المعاصرة.

د.علاوة كوسة– أستاذ محاضر

المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف–ميلة.

الملخّص:

لقد كانت الثورةُ التّحريريّةُ التّيمةَ الأساسَ في الزّخم الموضوعاتيّ الرّهيب للقصيدة الشّعبيّة الجزائريّة المعاصرة،ورغم انتقال الحديث في المشهد النّقدي الجزائريّ المعاصر من قصيدة الثّورة إلى ثورة القصيدة . فنّيّا وموضوعاتيّا . إلاّ أنّ المنتجَ الشعريَّ الشعبيَّ (الملحونَ) مازال يشعّ بالالتفات إلى هذا المنجزِ التاريخيّ العظيمِ، ومازالت الثورةُ التحريريةُ مرتكزا إلهاميّا ودافعا سيكولوجيّا للمقول الشّعريّ لشعراء القصيدة الشّعبية الذين عايشوا الثورةَ، ومن أبناء جيل الاستقلال الذين تمثّلوها وأبدعوا في الكتابة عنها . وقد حاولنا في مداخلتنا هذه الوقوفَ على نماذجَ شعريةٍ شعبيةٍ تناولت الثورةَ التّحريريةَ أحداثا وأمكنةً وأزمنةً عبْر متكآتٍ تاريخيةٍ منها : الفاتح من نوفمبر ،الشّهيد ،الأوراس ،جيش التّحرير الوطني.

Abstract:

Our article deals with the presence of editorial revolution in the Algerian contemporary popular poetry, through various samples of poetry that focused on the theme of the revolution, of November, and the National Liberation Army.

إن الحديث عن القصيدة الشعبية هو الحديث عن فن أدبي ذي محمولات تراثية ، و جمالية فنية ، و احتياطي دلالي كبير ، هذا الإرث الأدبي و التراث الشعبي ذو القيمة الإنسانية الخالدة المتجددة ،"و إذا ما عرف الباحثُ خطورةَ التراث الشعبي في بلورة الشخصية الجماعية و توحيد صفها ضمن بنائها الحضاري و سلوك الانتماء ، أجزل الجهد دون كلل في تنقيب مواد التراث ، و هو يعتقد أنه يخدم مجتمعا و يرسخ وحدة أفراد لابديل لهم عن الانسجام الواعي بينهم ، بل هو يخدم حضارة لها مكانة في الصرح الحضاري الإنساني " 1.

و لعل القصيدة الشعبية لبنة تراثية جمالية هامة في هذا الصرح الحضاري بالنسبة إلى مشهدنا الأدبي الجزائري ، و مثلما عرفت الساحة أسماء أدبية كبيرة في الفصيح بكل أجناسه الأدبية ،مثلما كان للشعر الشعبي أو الملحون رواد و'' نوابغ عرفتهم الحركة الشعرية منذ القرن السادس عشر و لا زال شعرهم يملأ الذاكرة و يسكن الروح'' 2 كما يقول بذلك الدكتور عبد الحميد بورايو،و ذلك لما كان يحمله في متونه، و لتعدد مضامينه و لجماليته ،و لأنه كان يحمل الخلود في ذاته ، و من هؤلاء الشعراء الشعبيين الجزائريين : لخضر بن خلوف ، محمد بن قيطون ، أحمد السماتي ، عبد الله بن كريو، سي محند أو محند و عبد القادر الخالدي ...

و لا يختلف اثنان حسب الدكتور عبد الحميد بورايوفي أن " الشعر الشعبي عنصر هام عن عناصر الأدب و الإبداع ، فكان عبر العصور الوسيلة و المتنفس الذي يلجأ له الناس للتعبير عن أحاسيسهم و خواطرهم "3، و كان فعلا مرآة لذواتهم و أعماقهم ، و هذا ما يؤكد أن شعراء الملحون "احترفوا نحت القوافي و التغني بالحياة و مباهجها و عبروا عن الحياة الروحية للجماعة التي انبثقوا منها ، و صوروا انشغالاتها و همومها ، و قد عبروا من خلال ذواتهم عما كان يختلج في ذوات الآخرين ممن عايشوا و تقاسموا معهم شروط الوجود في الزمان و المكان" 4 ، و هو ما يبين فعلا مقدرة هؤلاء الشعراء على تمثل تجارب الآخرين ممن بينهم قواسم وطنية ، اجتماعية ، دينية ، و إنسانية مشتركة .

و قد كان الوهج الشعري أشدّ و أعمق و أجمل حينما يكون المشترك الوطني و الهوية و المحلية هي الركائز التي يستند إليها المقول الشعري ، لأنها ثوابت تحرك ذوات الشعراء و توقد فيهم القرائح الشعرية ، و "الشعر الشعبي الجزائريالمسمى بالملحون يشكل الفن التعبيري المميز و المحتفى به في الأوساط الشعبية ، و هو ذو تقاليد ثقافية و جمالية ضاربة بجذورها في أعماق التاريخ ، و يمثل ملمحا من ملامح الهوية الوطنية " 5 ،و تلك هوية النص الشعري الشعبي الجزائري، الذي حمل كل هاته الصفات و الجماليات و كان ذا محمولات وطنية ترسّخ الهوية الوطنية في مجتمع جزائري مختلفة ألوانه في تناسق جمالي رهيب .

و إن الذي يتصفح ديوان القصيدة الشعبية الجزائرية منذ القدم يعرف" مواكبة النص الشعري الشعبي لكل انتفاضات الشعب الجزائري و ثوراته و معاناته و حياته اليومية بشكل عام و بالعودة إلى آثارانا نجد ثوراته و مقاوماته المختلفة مؤرخة في شعره " 6 و لعل ثورة الفاتح نوفمبر كان لها الحظ الوفير و التمثل الشعري الواضح ، و إن " الثورة التي هي كذلك الحاضرة بكل زخمها و ثرائها في النص الشعري الشعبي الذي وجدناه في فاتح نوفمبر فحسب بل يهيء لها من مهانات الشعب التي سبقتها ثم يواكبها مع الساعة الصفر التي انطلقت فيها فتناول كل ما يتعلق بها " 7 ، من معارك ، و مخلفاتها ، كما تصف لنا القصائد أماكن المعارك ، و ذخائرها ، و تداعياتها على العدو المستعمر بالهوان و الخسران ، و على الشعب الجزائري بالانتصار و الفرح.

و رغبةً منا في تصفح المتن الشعري الشعبي لشعراء جيل الاستقلال ، و معرفة كيفية تمثلهم للثورة التحريرية المظفرة ، و آليات تصويرها أحداثا و رؤى ، و انعكاسات ، فإننا سنقف عند المد الثوري النوفمبري من خلال نماذج عديدة لشعراء شعبيين جزائريين ،عبر محطات موضوعاتية ، و''تيمة''شكلت نواة الطرح الشعري لدى شعراء جيل الاستقلال و هي ثورة أول نوفمبر الخالدة

أولا : نُوفمبر مبتدأ الثورة:

لا يمكن الحديث عن الثورة الجزائرية الخالدة دون الانطلاق من مهدها الأوراسيومبتدءهاالنوفمبري لذلك فإن جل الشعراء الشعبيين مروا شعريا بهذه المحطة التأريخية الهامة في مسار الثورة والمنطلق الفعلي لها ،وذلك ما نلمحه في جل القصائد الشعبية لدى شعرائنا الذين تغنوا بليلة الفاتح من نوفمبر ، وفي ذلك يقول الشاعر عبد القادر قماز في قصيدته " نوفمبر":

نبدأ بسم الله قولي و نكبر

مطلع الجلال جلاه التعبير

نوفمبر نداه ثوار تكبر

نظمي ومضات من حرب التحرير

اغزاونا شذاذ جلابين الشر

و طبيعة لشرار نكارين لخير

الشعب الغضوب اسيودا تزأر

اشتد عليها الجرح علات الزئير (8)

ولا يكتفي الشاعر بذكر لحظة انطلاق الشرارة الأولى لحرب التحرير بل نراه يصور لنا دوافها والظروف التي أدت غليها كما لا ينسى تصوير الهبة الشعبية وتلبية نداء الوطن فيقول:

اسمحنا في الولاد سبلنا لعمر

أهدينا لرواح للوطن الضرير

اجنودناتحداو جموع العسكر

لا قوة كوبتير لا قبطان أيدير

عشنا سبع سنين ظلام معكر

من سواد الليل و عذاب السعير

و النيران اشكال شاليمو يزهر

يشوي لكباد تيارها لغزير

ذا نوفمبر عاد و الأمر تغير

افراق الثوار كل يوم تسير. (9)

وفي طرح دائري يعود الشاعر ليتحدث عن عودة نوفمبر بعد الاستقلال وتذكار من ضحوا بحياتهم ومن مازالوا ينتظرون وما بدلوا تبديلا .

ثانيا :تمثلات الثورةالتحريرية في القصيد الشعبي :

إن متصفح المتن الشعري الشعبي الجزائري لدى شعراء جيل الاستقلال يقف عند الحضور المكثف لتيمة الثورة ، بكل تجلياتها أحداثا وأمكنة وأزمنة ، ولا يغيب عن الشاعر الافتخار بهذا المنجز التاريخي العظيم ، فنراه يتغنى بثورته شعريا ومن ذلك قصيدة " دموع و شموع" للشاعر أحمد بن زيان حيث يقول:

ثورتنا ثورة و تاريخ مرصع

الشهداء مضاو و الوطن دعا

كل المعمورة بثورتنا تسمع

حنا لي هدينا الشوايع و الشيعة

ذيك الثورة خصالها فينا تشفع

و حنا لي عندنا حق الشفاعة

ذيك الثورة جراحها تبقى مرجع

في العالم ما زال طلعتنا طلعة

احنا الشعب كريم مطبوع بطابع

و الأمير الي طبع هذي الطبعة

طبعنا بالميثاق و القلب الواسع

ما ننواو في عاهد الخصم بخدعة

و السلم جهرناه في عين الطامع

كلمتنا كالرصاص ما فيها رجعة

يا من جيت اليوم للأمة تسمع

احنا القلوب الطيبة و أهل الرفعة . (10)

وإذا كان تغني بوزيان بالثورة قد عرج على الافتخار بمآثرها فإن الشاعر لحبيب صيام وفي حديثه عن الثورة قد عرج على الأمكنة والفضاءات الجغرافية التي كانت مسرحا لهذه الثورة ومنها الاوراس ومسكانه وذلك في قضيدته " الاوراس يحاكي الونشريس

من مسكانة جيت نعمة و قصيدة

و جبت معايا ناي فرحي و أحزاني

و جبت معاي ألف بستان و وردة

و رسيس العزيز باغي ترضاني

معقل الثوار و رجال الشدة

لوراس جدي الغالي وصاني (11)

وفي قصيدته "أشهد يا تاريخ " يتحدث عن الثورة التحريرية ولكن بتقنية الاسترجاع والاستذكار الزمنيتين ،ومن خلالهما ينقل لنا صورة الثورة في مخيال ابناء جيل الاستقلال الذين لم يعيشوا احداثها ولكنهم يتوقون للسماع عنها في كل حين وفي عيدها خاصة فيقول 12:

يا تاريخ اروي علينا طرف اخبار

عيد على الثورة بصدق و أمانة

و اطربنا بنغام في عيد الثوار

نغمة زينة تزيد للقلب حنانة

انضربت لمثال بها في القطار

قعدت ثورة نعيد للغير شنانا

اشهد يا تاريخ و احكي ماذا صار

فكر بيه جيال ظلت غفلانة

عيدلهم ما دار فينا لستعمار

في فحشنا حبيب ما ناف معانا

عيدلهم ما دار صالون و بيجار

سبع سنين و نص فاتت إهانة

كنا قلة و العدو جيشو جرار

وين تصد العين تلقى تراسنة

تحية و إسلام من مهد الثوار

ياخي حب لوطن ذاك هوانا

هذي لكلمة لحبيب يهديها تذكار

معاها نية خالصة من مسكانة (12)

أما الشاعر توفيق ومان فينقلنا إلى أجواء المعارك وميادينها مبينا لفرنسا بأن مآلها الهزيمة والخسران وان الشعب سينتصر لأننا في عام الاستقلال فيقول:

منين نبداك منين

لجبال مزعزعين

و لوراس شاهد رزين

و للسماء صارخين .. بالله أكبر .. فعل آمتين

يا فرناس ما بقالك بين و بين

هذا العام اسمو 62 . (13)

ثالثا :جيش التحرير و الثورة:

إن للثورة رجالها ومهندسيها ومخططيها ومنفذيها أيضا ،ولعل جيش التحرير أحد هاته الاطراف الرئيسة البارزة التي صنعت مجد الثورة ، لذلك نجد الشعراء قد تحدثوا بفخر وإسهاب عن جيش التحرير وبطولاته وكل صولاته وجولاته في الجبال وميادين المعركة ، وكيف أن أبطال الجيش لبوا نداء الواجب وفي ذلك يقول الشاعر لحبيب صيام في قصيدته'' اشهد يا تاريخ'':

عيدنا نبذه على الجيش المختار

جيش التحرير ما يخلف جبانا

أصل الطير يجيب من صلبو لطيار

و الطير الحر ما يرضى هانا

ذو لبطال ضناتهم قبلة لحرار

علونها ثورة الناس الوزانة

من لوراس تعاهدوا فرسان الثار

رفعوا سيف الحق في وجه عدانا

وقت الشدة على الوطن هانوا لعمار

و الزعماء ما قولو بركان

اذكر يا تاريخ سيرتهم بجهار

هذوك الي حماو في الضيق قفانا

ناداهم حب الوطن عمرو لخطار

بالإيمان قلوب ذا الناس مليانة. (14)

أما الشاعر أحمد بوزيان فقد جعل من مناقب الجيش الوطني الشعبي مثيرا للحديث عن مآثر جيش التحرير أيام الثورة فنراه معددا للمفاخر في قصيدته " راية الأشراف":

يا راية الأشراف تعلي

ضمي بشموخك الألوان

خلي عطر المجد يولي

ينهل من عيد الشجعان

عيد الجيش اليوم

به الفرح يدوم

و الوطن يباهي بأبطاله

في حضرة الأوطان

يا جزائر جيشك حربي

شاوي أمازيغي حربي

بأخلاق الإسلام معبي

من جيش التحرير أزمان

تحية للجيش الشعبي

هو صمام الأمان

جيشك بأجيالو متواصل

صينه دوى في المحافل

في العالم خبره متداول

وين مشى خلى برهان

من المحيط لحوض الساحل

عزفت بخصاله الألحان

جيشك عهده ما يتندى

صان السيارة و الوحدة

في السلم و في وقت الشدة

يبقى تاج على الريسان

وين ما وزنوه اتحدى

ديما راجح في الميزان (15)

رابعا :الشهيد : الرمز والمفخرة .

مثلما تحدث الشعراء عن الثورة وانطلاقتها النوفمبرية وأحداثها البطولية وجيشها البطل المقاوم ،فقد تحدثوا أيضا عن الشهداء بوصفهم أبطالا ضحوا بأغلى ما يملكون من أجل الحرية ، فوهبوا حياتهم من أجل أن نحيا في عزة وكرامة ، ونجد الشاعر عبد القادر قماز في قصيدته" تحية الشهيد " يحيي هؤلاء الأبطال ويذكر دوافع استشهادهم وفضلهم على الأجيال التي تليهم ومكانة الوطن عندهم فيقول:

حيوا الشهداء انجدد عاهدنا

شهادتهم رصيد لنا عز و جاه

صناع التاريخ عزوه صورتنا

هذا وطن العز الشهيد فداه

طريق الجهاد وحد كلمتنا

و الثورة ميدان رغبة خيرناه

ندهة الوطن جمعت فقرقتنا

أرضو حبينا و عشقنا سماه

سولها الربوع جملة عرفتنا

سلاح الإيمان الكافر ركعناه

تشهد القمم كانت ثكنتنا

افراشنا تراب و اغطانا سماه

ارموز المثل منهم عبرتنا

و أجمل الأمثال ما الشهيد أعطاه

أبذل النفيس ضحى علمنا

و لتلك الخصال بالذكرى نلقاه

يرحم الشهيد ايبارك ثورتنا

و بالصلاة على الرسول نختم ما قلناه (16)

أما الشاعر احمد بن زيان فيستعيد ذكرى الشهداء بشيء من التامل في تضحياتهم وأعمالهم الخالدة ويحمل الجيل الجديد مسؤولية المحافظة على هذا البلد الآمن الذي تركه لنا الشهداء أمانة فيقول في قصيدته " زغرودة الشهيد":

تحية إجلال لك أمناضل

شانك يا شهيد يبقى لابد كبير

مقامك مازال للآن مفضل

و اسمك محفوظ غير أجلك كان قصير

حتى لو مشيت ما زلت مدلل

نورك وسط قلوبنا ما زال ينير

إذا عدينا نعدوك الأول

و اغدرنا لا كان جا منا تقصير

إذا خلدناك خليت خصايل

غايب و انت بسيرتك في القلب عشير

إذا رحمنا الله عليك يقبل

و إذا مجدناك تسوى ذا التقدير

كان بكينا على أطلالك تستاهل

و إذا سغنا كلام نذكروك بخير

كان ذكرنا الجود جودك يتهاطل

غير غمام زهات به سنين الخير

إذا قلنا النيف من عندك يبطل

مكاش الي كي انت عالوطن يغير

غالي وسط نفوسنا عندك منزل

منزلتك كي مقام طلحة و الزبير

انت بصح واجبك درته كامل

من ذا الدنيا مشيت مرتاح الضمير

اديت الي عليك و المولى كمل

خليت التاريخ يشهد لك بالخير

قلت لمن يبغي الحياة انا نرحل

هاهوليك الفلك دقة بمسامير

موت الحرمة قلت و لا عيش الذل

و طلبت من الله يجعلك تيسير

يا شهيد بلادنا مالكش مثل

و الثورة الي صنعت ما ليهاش نظير

انا روحي معاك كانت تتجول

ضاقت بي قلت نكتب لك تقرير

على دربك ما زال رجال تناضل

و الأمة الي فديتها ما زال بخير . (17)

ولا يتوانى الشعراء الجزائريون في ذكر أسماء الشهداء بفخر واعتزاز ومن ذلك ما كتب لحبيب صيام:

شفناهم بقلوبنا ماشي لبصار

ما زالو لليوم حيين معانا

مثل العربي بن مهيدي في المشوار

ديدوش و زيغود و أحمد زبانا (18)

ويذكر لنا الشاعر أحمد بوزيان أحد شهداء الثورة التحريرية في جو حميم بينهما على شكل حوار عابر للأزمنة والامكنة ولكنه راسخ في المخيال الجمعي الجزائري فيقول في قصيدة أهداها إلى روح الشهيد قويدر طواهرية :

قويدر ناداه وطنه و استشهد

و أنا ناداتني الذكرى هذا اليوم

قتلوه نهار قال للحق توحد

لاح جناحه في السماء كي الطير يحوم

عدموه منين ناض يتودد للورد

و يقصص في غابة الظلم المسموم

كي عدموه نهار غنى واش قصد

حين فضح سر السماء و هوات نجوم

عدموه تمناو اسمه ما يخلد

ساعة ناض من القبر نوضة محتوم

جاني لبارح قالي يا سيد أحمد

غدوة تحضر ريحة لورد لمشموم

غادرني هو و جيت أنا قاعد

و الكلمة لي قالها جمرة للنوم

و أنا جيت ليوم لخراني نشهد

أما قويدر دام في الجنة و يدوم (19)

وليس أجمل من أن تبقى الثورة في الذاكرة الشعرية عند شعراء الجيل الجديد من الشباب ، ومن ذلك ما جاء في قصيدة ''الذكرى الخمسين'' للشاعر قيس راهم ،حيث يعترف أنها عيد الثورة ذكرى خالدة في الأذهان ،ولا تنسى أبدا، رغم أنه لم يعشها ولكن قرأعنها :

سجل يا تاريخ اليوم تلمينا

الذكرى الخمسين كملت حساب

بشمسها الحرة أصبحنا وأمسينا

والقمر الزاهي حاضر ما غاب

ما حضرناش لكن فهمنا وقرينا

وصاطر الجرح يجي بعقاب (20)

ولعل هذه التمثلات الجميلة للجيل الجديد من الشعراء لثورتنا التحريرية توحي بأن الثورة كانت وستظل التيمة الأساس في القصيدة الشعبية الجزائرية على مر العصور والأجيال .

خاتمة:

لقد تبين لنا من خلال هذا المسح الموضوعاتيوالقراءةالمضامينية للمتن الشعري الشعبي الجزائري المعاصر ما يلي :

_ إن الثورة التحريرية كانت الموضوع الرئيس الذي لا يكاد ديوان شعري شعبي يخلو منه .

_ لقد تمثل شعراءُ جيل الاستقلال الثورة أحسن تمثل فانكتبت وخُلدت شعريا في أعمالهم على اختلافها الشكلي ومستوياتها الفنية .

_يمكن الحديث عن تجليات الثورة الجزائرية في القصيدة الشعبية من حيث: الأحداث والبطولات ،والأمكنة والأزمنة ،والشخصيات ونقصد المجاهدين والشهداء وعامة الشعب الجزائري.

_ إن القصيدة الشعبية الجزائرية المعاصرة ورغم المدّ التجريبي الفني وما طرأ على شكلها التقليدي من تغيرات ،ورغم المضامين الطارئة الجديدة عليها ، ورغم انتقال الحديث من نص الثورة إلى ثورة النص ،إلا أن الثورة كموضوع بقيت مرتكزا ذا قيمة خالدة في المتن الشعري الشعبي الجزائري .

الهوامش :

1 ـ مبروك دريدي:القصة الشعبية في منطقة الهضاب،منشورات مديرية الثقافة لولاية سطيف،ط1،2010،ص.5

2ـ توفيق ومان :أنطولوجيا الصوت المكنون في الشعر الملحون، دار فيسيرا للنشر ، الجزائر،ط2،2010ص.9

3 ـ توفيق ومان:المرجع نفسه ،ص.15

4 ـ توفيق ومان:المرجع نفسه ،ص.13

5 ـ توفيق ومان:المرجع نفسه ،ص.12

6 ـ العربي دحو:مقاربات في الشعر الشعبي العربي في الجزائر،منشورات مديرية الثقافة لولاية سطيف ،ط1 2003،ص.10

7ـ العربي دحو :المرجع نفسه،ص11..12

8 ـ عبد القادر قماز :منتخبات من الشعر الشعبي ،منشورات المؤسسة الوطنية للاتصال النشر والتوزيع ،الجزائر، ط2009،1، ص.09

9 ـ عبد القادر قماز :المصدر نفسه ،ص .10

10 ـ أحمد بن زيان:قصائد للثورة والوطن،منشورات الوكالة الإفريقية للإنتاج السينمائي والثقافي،الجزائر،ط2012،1،ص.97

11ـ حبيب صيام :فرط الإحساس في شعر الاوراس، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع عين مليلة، ط1، 2009،ص.22

12 ـ حبيب صيام: المصدر نفسه،ص.41

13 ـ توفيق ومان :حد ق مد ق،منشوراتفيسيرا،الجزائر،(دط)2010،،ص.62

14 ـ حبيب صيام:المصدر السابق،ص.42

15ـ أحمد بوزيان:المصدر السابق،ص.104

16 ـ عبد القادر قماز:المصدر السابق،ص.23

17ـ أحمد بوزيان :المصدر السابق،ص.77

18 ـ حبيب صيام :المصدر السابق،ص.42

19 ـ أحمد بوزيان :المصدر السابق ،ص.95

20–قيس راهم :ريشة وارياح،منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين ،ط2009،1،ص57.